الالتقاء الفاجع

للاديب غيب افندي شلاني

كانت احدى قرى لبنان حافلةً بالسكّان زاهيةً بالعمران وكان اهلها راتعين في بحبوحة الهناء وهم من القوم الوسط لا يعضُّهم الفقر بنابه ولا يطرهم الغنى بتوفُّر اسبابه. يعيشون وهم راضون وبما قسم الله لهم قنعون وكان للدين بينهم السهم الاعلى والحظُّ الاوفى يجرون على وصاياه ويكرمون ارباباً. وكان اذا تأمل احد امرهم غبطهم على صفاء عيشهم ورخاوة بالهم يرى السلام مخيماً على قريتهم والانس ضارباً اطنابهُ في ظهرانيتهم

ولمَّا كان اصيل احد ايام ايار من سنة ١٨٨٤ كان اهل القرية مجتمعين في الكنيسة لاقامة فرائض العبادة نحو البتول الطاهرة في شهرها المبارك. فلمَّا انهوا صلاتهم خرجوا فجلسوا برهةً تحت السنديانة العظمى التي تظلّل باحة كنيستهم يتجاذبون اطراف الحديث. وبينما هم يتباحثون في شؤونهم اذ دخل في حلقتهم كهلٌ متزيٍّ بزيّ الاوربيين فابتدروهُ بالسلام ورحّبوا به. وكان الرجل احد ابناء القرية كان هاجر الى اميركة وقضى فيها نحو خمس سنوات فعاد وفي جيبه بضعة آلاف من الدولار اكتسبها بعد شقّ النفس وباع في تحصيلها دينهُ ولم يَصُن ماء وجهه

فاستخبره الحضور عن احواله واستطلعوا طلعهُ فاخذ يقصُّ عليهم رحلتهُ الى اميركة الشماليَّة ويصف لهم ما شاهد من عظائم العالم الجديد وحريَّته المطلقة ويرغّبهم في عظم ثروته وكثرة خيراته. قال: كنتُ نظيركم اعمل في اوزاقي متحتلاً عرق القربة لانال ما يكفيني وعيلتي وها انا اليوم بعد سنين قليلة صرفتها في كندا وافر النعمة البس الثياب الفاخرة واعيش عيشة رخاء وقريباً ابني الابنية الشاهقة واشتري الاوزاق الواسعة فاذوق من هناء العيش ما لم يَدُرْ على خلدي سابقاً

ما انهى الراوي كلامهُ حتى غلت في قلوب السامعين مراجل الطمع ونفث فيهم شيطان المال بسمّه الذعاف فذهب كلٌّ الى منزله وهو يحلم بالغنى العاجل ولسان حاله يقول: «ما ضرَّ بي ان اتغرَّب بضع سنوات عن الوطن ثم اعود اليه مثريا فارتاح من مشاقّ الزراعة وتعب الاوزاق» . . . وهكذا تقلبت خواطرهم واضطرب بالهم وما زال

الخبّاث يستفزّهم بمكره ويوسوس اليهم بخداعه حتى شرعوا يسافرون افواجاً من ابن عشر السنوات فما فوق. ولم تمضِ سنة على هذه الحادثة حتى خلت القرية من السكّان ونعق فوقها الغربان فتشتّت شمل اهلها ولم يبقَ منهم الّا النسوة والاطفال والعجزى. امّا ارزاقها التي كانت زاهية نامية تأتي اصحابها بالخيرات الدارّة فانّها علاها الشوك والقرطب فاصبحت في حالة من الخراب والدمار ليس وراءها غاية

وكان بين الذين عمدوا الى المهاجرة رجل يدعى عبد الله قزما. فهذا قبل سفره ذهب الى الاب يوسف كاهن قريته ليودّعهُ ويتزوّد ببركته. وكان الاب رجلاً قديساً يعزّهُ الكل ويجلّونهُ لسموّ فضله. فلمّا وقف على قصد عبد الله تنهّد الصعداء ثم سألهُ:

— أتسافر وحدك ام تأخذ معك عيلتك ؟

— لا بل أسافر وحدي يا ابتِ

— انّ هذا عملٌ لا يليق بالمسيحيين . فكيف تنطلق وتترك امرأتك وصغارك دون عضد ولا مساعد ؟

— انني اعهد اليك الله بانني اعود اليهم بعد سنة او سنتين

— هذا قولٌ سمعناهُ من غيرك وها قد مرَّ عليهم سنون عديدة وهم حتى الآن نازحون عن الاوطان تاركون بالأيمان. فناشدتك الله إلّا ان تبقى في بيتك او تصحب عيلتك معك. فانّ هجرك لبنيك وزوجتك ممّا ينافي الدين والآداب أفلا ترى ان الملاك لمّا ظهر ليوسف البارّ لم يوصهِ بان يخلّص الصبيّ وحدهُ بل قال لهُ: «خذ الصبيّ وامهُ واهرب الى مصر» كانهُ تعالى اراد ان يعلمنا انهُ لا يجوز للمرء ان ينفصل عن عيلتهِ وهو رأسها. فبئس الجسم الذي ينفصل عنهُ رأسهُ...

غير انّ عبد الله الذي كان يطيع سابقاً مشورة رجل الله كباقي اهل قريته اضحى هذه المرّة عتوقاً لانّ الطمع كان ضرب على بصرهِ واصمّ سمعهُ فلم يصغِ الّا الى صوت مطامعه

ومن ثم شدّ صاحبنا مسافراً وترك امرأتهُ سعداء وصبيّاً لهُ يناهز الخامسة من عمرهِ يدعى فارساً وابنةً ترضع تدعى مرتا على امل انهُ يعود بعد سنةٍ او سنتين

. . . . . .

تسع سنوات قد انقضت وعبد الله في الولايات المتّحدة. وكان في اثناء السنين

الاولى يُرسل مرّة بعد أُخرى الى قرينتهِ بعض دريهمات تستعين بها على قضاء حاجاتها لكنّ هذه الصلات قلّت شيئاً فشيئاً حتى انقطعت تماماً كما انقطعت اخبارهُ عن امرأتهِ فخيّل لها بانهُ قد مات

وعندئذٍ لم يبقَ لسعداء من امل إلا في ولديها ترجو انهما يقومان بأودها لكنّها بدلًا من ان تُحسن تربيتهما وتزرع في قلبهما بذر الفضيلة والادب كانت تربيهما بالفنج والدلال ولا تردُّ عنهما محرَّمًا وكانت ترغبهما في حطام الدنيا وتنفخ في صدرهما روح الطمع فنشأ الولدان على الجهل والعناد وشبّا على ركوب المعاصي لا يهمان إلّا الى جمع المال واكتسابهِ بايّ وسيلةٍ كانت

ففي ذات يوم دعت سعداء فارسًا ولدها وقالت لهُ: ترى يا بنيّ الى اي حالةٍ من الضيق حطّ بنا الدهر اماً ابوك فلا علم لنا بامورهِ منذ ستّ سنوات وما ادرانا ان كان حتى الآن في قيد الحياة. فهلمَّ يا بنيّ ارسلك الى حيث محطّ الآمال ومورد الثروة فاذهب الى اميركة لعلّك تغتني وتغنينا معك. اذهب ولا تعودنَّ الّا غانمًا

فما سمع الولد هذا الكلام حتى طار عقلهُ فرحاً وهو يظنُّ ان اميركة وراء لبنان وانهُ اذا وصلها كفاهُ ان يفتح فاهُ ليشبع من ذهبها

فبعد اسبوع خرج فارس مع احد المهاجرين. وابحر الى نيويورك فلمّا رصاها ولم يهدِ احد الى منزل والده اضطرَّ الى ان يجول في ساحات المدينة يطلب عملًا يرتزق بهِ. وقرع ابوابًا جمّة ليستخدمهُ احدٌ عندهُ او يعطيهُ بضاعةً يحملها في ارباض البلد فيبيعها باجرة معلومة. لكنهُ لم يجد مَنْ يعيرهُ اذنًا صاغية خوفًا منهم ان يأتمنوا على مالهم رجلًا من النصّابين. فبقي على ذلك مدّةً حتى انفق آخر فلس كان في كيسهِ. فاحوجهُ الامر الى انْ يدخل في خدمة احد السوريين مجّانًا على شرط ان يعطيهُ قوتهُ اليوميّ. ولذلك لم يكسب مدّة سنتين شيئًا من الدراهم يبعث بها الى والدتهِ. وكانت هذه المسكينة تتقلّب ليلًا مع نهار على جمر القتاد

فلمّا طال انتظارها ولم تسمع لابنها خبرًا ارتابت بوصوله سالمًا فعمدت على ارسال ابنتها مرتا الولد الوحيد الذي بقي لها لتتسلّى بهِ عن فقدان زوجها وولدها. فسافرت مرتا واصابها في اميركة ما اصاب اخاها واستخدمت نظيرهُ بما تسدُّ بهِ رمقها

. . . . . .

كيف نصف يا تُرى ما ألمَّ بسعداء التعيسة الحظّ من الحزن والغمّ عند ما رأت نفسها منفردةً ليس لها من يفكّر في امرها او يرثي لشقائها. ولمَّا كان قلبها منذ زمن مديد ملتصقًا بالارض لا تعرف من الدين الّا قشرتهُ لم تجد في العبادة الصحيحة ما تُلطّف بهِ اوجاعها... وممَّا كان يزيد نار وجدها اضطرامًا انها كانت ترى بعض المهاجرين يعودون من الغربة رابحين وهي تزداد فقرًا وشقاء تهدُّ ركنها الاشجان وتُطير همومُها الرقاد عن الاجفان... الى ان عيل صبرها فباعت دارها وسافرت لتلحق بزوجها وولديها . . . . . .

ولمَّا ألقت المركب مراسيها في ميناء نيورك وجدت سعداء احدى صديقاتها كانت اتت للاقاة احد اقاربها فرحّبت هذه بسعداء ودعتها الى بيتها فقصدتا شارع واشنطون حيث يسكن اكثر السوريين وكان طريقهما امام مجلس الحكومة حيث ازدحم جمٌّ غفير اكثرهم من السوريين وقد علت جلبتهم وكثر لغطهم فساقهما الفضول ان تتدنيا الاخبار. وبينما هما تستخبران عن الامر واذا بباب المجلس قد فُتح فسكت الجمع كأنَّ على رؤوسهم الطير فتقدّم القاضي وبيدهِ شقّةٌ تلاها بصوت جهوريّ: قد حُكم بالاعدام على فارس بن عبد الله قزما السوريّ لقتلهِ مخدومهُ رولي نعمتهِ طمعًا في سلب مالهِ وحُكم على مرتا اختهِ بسجن عشر سنوات لسرقتها حليّ معلمتها...

فما كاد يتمّ القاضي حكمهُ حتى رأى الجمهور رجلًا وامرأةً سقطا مغشيًّا عليهما فنُقلا على آخر رمق الى المستشفى. ولمَّا افاقا وكلاهما بين حيّ وميت واذا بعبد الله قزما بازاء امرأتهِ سعداء عرفها وعرفتهُ فصرخا صرخةً عظيمةً وسقطا جثتين هامدتين نُقلتا في يوم واحد وقبرتا مع جثّة ابنهما بعد شقيهِ. امَّا مرتا فانها ماتت بعد حين في السجن ايسًا وكآبةً

مطبوعات شرقية جديدة

اسرار البلاغة في علم البيان

تأليف الامام عبد القاهر الجرجاني

عُني بطبعهِ وتصحيحهِ السيد محمّد رشيد رضا في مطبعة المنار (سنة ١٣٢٠ ص ٣٥٧)

اهدانا الكاتب الفاضل منشئ مجلّة المنار في مصر السيد محمّد رشيد رضا نسخةً